مجلة "آفاق فكرية"
ص. ص. 47 - 61
رت م د: 2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507

الأوبئة في الفترة المتأخرة من العصر الوسيط في المغرب الأوسط

Epidemics in the late medieval period in Central Maghreb

لخضر العربي

المركز الجامعي نور البشير، البيّض (الجزائر)، larbi_lakhdar@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/05/10 **تاريخ القبول:** 2020/08/31 **تاريخ النشر:** 2021/10/30

ملخص

شهد المغرب الأوسط على العهد الزياني موجات عاتية من الأوبئة والطواعين أثرت بشكل حاد جدا على جوانب حياة الإنسان والمجتمع، فإلى جانب ما كانت تتسبب فيه من موت أعداد كبيرة من البشر في فترة وجيزة، كانت تفرز أزمات أخرى أشد وطأ على المجتمع كنقص الأقوات والغلاء وتفشي المجاعات، وظواهر أخرى كالاحتكار واللصوصية وغيرها. ذلك لأن طبيعة هذا النوع من الجوائح لا تخرج عن شكل المرض العام الذي ينتشر ليشمل مدنا بأكملها بل بلدانا وقارات، وتكون أعراض هذا النوع من الأمراض متماثلة وأسباب الموت فيه كذلك.

وسنحاول في هذه الورقة الوقوف من خلال المادة الخبرية التي تضمنتها النصوص التاريخية، على حال بلاد المغرب الأوسط لهذا العهد عبر المحطات الوبائية التي حلت بساحتها، وقد صورت لنا بعض المصادر التاريخية مشاهد قاسية ومرعبة، تظهر بدقة -في بعض الأحيان- حجم الضرر والأثر الذي خلفته على الفرد والأسرة والمجتمع والدولة

كلمات مفتاحية: الوباء؛ الطاعون؛ المغرب الأوسط؛ الجزائر؛ العهد الزياني.

Abstract :

The Maghreb during the Zayani era witnessed severe waves of epidemics and plagues that affected very sharply the aspects of human life and society. In addition to what was caused by the death of large numbers of people in a short period of time, other severe crises were emerging on society, such as lack of strength, high prices, and widespread famines, And other phenomena such as monopoly, banditry, and others. This is because the nature of this type of pandemic does not deviate from the general disease that spreads to include entire cities but countries and continents, and the symptoms of this type of disease are similar and the causes of death in it as well..

In this paper, we will try to stand through the news article included in the historical texts, in the case of the countries of the Central Maghreb for this era through the epidemiological stations that occupied its scene, and some historical sources have depicted harsh and terrifying scenes, showing accurately - sometimes - the amount of damage and the impact left by On the individual, family, community and state.

Key words: The epidemic; the plague; the central Maghreb; Algeria; the Zayani era

مقدمة:

وقبل أن نباشر تنقيبنا عن الأوبئة والطواعين في المغرب الأوسط، نشير إلى أن ثمة مشكلة منهجية تعتور طريقنا، وتكمن في ندرة المادة الخبرية التي نقلتها لنا المصادر، ولا سيما في الأخبار المتعلقة بكيفيات انتشار الظاهرة الوبائية في مدن وقرى الإطار الجغرافي الذي نبحثه، فضلا عن غياب تفاصيل الأعداد وأخبار العلاجات الفعلية ودور الأطباء والبيمارستانات والسلطة والمجتمع في مواجهة الظاهرة؛ ورغم الهول والخسائر الفادحة التي خلفتها هذه الظاهرة إلا أننا لا ندي لِمَ لَمْ تشد اهتمام وانتباه المؤرخين؟ لذلك فالنصوص التي بين أيدينا جاءت مقتضبة جدا وهزيلة، حيث طغى عليها العموم والتواتر، ولم تتناول بالذكر إلا بعض السمات العامة للمرض التي شاعت في بعض عواصم الأمصار.

لذا إستعنا ببعض النصوص في إطار مصادر الصنعة الطبية من أجل سد ما تبقى من ثغرات، ولتقديم تصور قريب عن طرق مجابهة المرض خلال العصر الوسيط، ذلك لأن المعارف العلمية كانت منتشرة ومتداولة لدى المختصين بهذا الفن عبر مدن وقرى العالم الإسلامي، وتتشابه إلى حد بعيد في طرق العلاج ونظام التغذية والوقاية وغيرها.

وتتلخصُ مشكلةُ الدراسةِ في الإجابةِ عن الأسئلةِ التالية:

كيف كان وقع الأوبئة والطواعين على بلاد المغرب الأوسط؟ ما الأسباب الكامنة وراء حدوث هذا المرض الهائل؟ كيف أصبح واقع إنسان مجتمع المغرب الأوسط ؟ كيف جابه أهل المغرب الأوسط الوباء والطاعون؟

ولمعالجة هذه الاشكالية تتضمن هذه الورقة المحاورِ التالية:

1) مفاهيم لا بد منها.
2) أسباب ظهور الوباء والطاعون وأعراضهما.
3) الأوبئة والطواعين بالمغرب الأوسط.
4) إفرازات الظاهرة.
5) مواجهة الظاهرة.

1. مفاهيم لا بد منها:

1.1. تعريف الوباء:

جاء في اللّغة: الوَبَأُ: الطاعون بالقصر والمد والهمز، وقيل هو كلُّ مَرَضٍ عامٍّ، وجمعُ الممدود أَوْبِيةٌ وجمع المقصور أَوْباءٌ، وقد وَبِئَتِ الأَرضُ تَوْبَأُ وَبَأً. وأَوْبَأَتْ إِيبَاءً ووُبِئَتْ تِيبَأُ وَبَاءً، وأَرضٌ وَبِيئةٌ على فَعيلةٍ ووَبِئةٌ على فَعِلةٍ ومَوْبُوءة ومُوبِئةٌ: كثيرة الوَباء(ابن منظور، م. 1968، ج:1، ص:189-190؛ الجوهري، إ. 1979، ج:1، ص:79).

وفي الاصطلاح عند أهل الفنّ تعاريف كثيرة للوباء منها: "هو فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح"(ابن حجر، ع. د.ت، ص:99)، و: "هو المرض العام"(ابن حجر، ع. د.ت، ص:103)، أو هو: "فساد مزاج الفعل، وخروجه عن طبعه الذي خُلِق له لما يحدث فيه من الحوادث المستغربة في مثله"(السرمري، ي. 2004-2005، ص:26).

وأكثر التعاريف دقة وتفصيلا في وصف الوباء أنه: "مرضٌ حادٌّ، حارُّ السبب، يتصل بالروح بوساطة الهواء، ويسري في العروق، فيفسد الدم، ويحيل رطوبات إلى السمّية، وتتبعه الحمّى ونفث الدم، أو يظهر عنه خُراج من جنس الطواعين"(ابن الخطيب، ل. 2015، ص:65).

2.1. تعريف الطاعون:

قال الزمخشري: "طُعِنَ من الطاعون فهو مطعون وهو من الطَّعن لأنهم يسمون الطواعين: رماح الجنّ" (الزمخشري، م. 1998، ج:1، ص:606)، والطاعون: "الوباء، وجمعه طواعين" (الفيروزآبادي، م. 2008، ص:1007)، والطاعون: "الموت الوَحِيُّ(السريع) من الوباء، والجمع الطواعين" (الجوهري، إ. 1979، ج:6، ص:2158).

وفي الاصطلاح الطاعون: "بثور أو ورم مع تلهب شديد، وقد يكون أخضرا، وقد يكون أحمر، وقد يكون أسود، وكلها رديئة خطرة"(السرمري، ي. 2004-2005، ص:25-26)، والطاعون "إنما يحدث في جزء خاص من البدن لا يتعداه لغيره، فيقتل صاحبه غالبا"، يعرف هذا الجزء بالمغابن وهي مواضع خلف الأذنين أو الإبطين أو في طي المفاصل وعند الأرنبة(ابن حجر، ع. د.ت، ص:106، 98، 99).

3.1. الفرق بين الوباء والطاعون:

تشير إحدى الدراسات إلى أن بعض الإخباريين قد تداولوا مصطلح الوباء والطاعون دون إدراك الفرق بينهما، وحتى أن بعض اللغويين لم ينتبهوا لذلك (مزدور، س. 2008-2009، ص:21)، ولكن أعتقد أنها قد جانبت الصواب وذلك لأن الوباء قد يكون وباءً في البداية (مرض بسبب فساد الهواء) تظهر أعراضه على حامله كالحمى وغيرها، ونتيجة مدافعة الجسم المريض للمرض المستشري فيه يتخلص من المادة السمّية في الدم، فيدفع بها الجسم في صفة خَراج (بثور أو دمامل) في جهات الجسم الرخوة (خلف الأذنين أو الإبطين أو مواضع طي المفاصل)، وهذا الخُراج يكون بمثابة الورم القاتل (الطاعون)؛ لذا في كثير من الأحيان عبر اللغويون والإخباريون عن الوباء بالطاعون لأن الوباء أصل المرض والطاعون ناتج عنه، وهذا ما جاء في تعريف لسان الدين ابن الخطيب يقول: هو (الوباء)"مرضٌ حادٌّ، حارُّ السبب، يتصل بالروح بوساطة الهواء، ويسري في العروق، فيفسد الدم، ويحيل رطوبات إلى السمّية، وتتبعه الحمّى ونفث الدم، أو يظهر عنه خُراج من جنس الطواعين" (ابن الخطيب، ل. 2015، ص:65).

وفي الحقيقة الفرق بين الوباء والطاعون واضح فصل فيه كثير ممن اعتنوا بالتأليف في هذا الاختصاص، ولا مناص هنا من ذكر بعض ما يستجلي ذلك على النحو الآتي:

- الوباء أعمُّ من الطاعون، والطاعون أخصّ من الوباء (ابن حجر، ع. د.ت، ص:104-106).
- كل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعون(ابن حجر، ع. د.ت، ص:104-106؛ ابن القيم، ج. 1986، ص:38).
- تكثر الطواعين عند الوباء، وفي البلاد الوبيئة، ومن ثم أطلق على الطاعون وباء (ابن حجر، ع. د.ت، ص:99).

2. أسباب الظاهرة:

يشير ابن خلدون إلى أن الأسباب الكامنة وراء حدوث هذه الأوبئة والطواعين تتمثل في:

- وفور العمران في مرحلة هرم الدولة.
- المجاعات الناتجة عن نقص الغذاء بسبب قبض الناس أيديهم عن الفلاحة لما فرض عليهم من ضرائب وجبايات.

- وكثرة الفتن والحروب والقتل.
- وفساد الهواء (غذاء الروح الحيواني) بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة.
- وتقارب البناء الذي يمنع تموج الهواء الذي يذهب ما علق بالهواء من عفن وفساد وغيره (ابن خلدون، ع. 1979، ص:537-539).
- والكوارث الطبيعية من جفاف وفيضانات وسيول وزلازل وأعاصير وثلوج، ما من شك أن من جملة نتائجها ظهور الأمراض والأوبئة، وذلك لتلازم العلاقة بينهما، فانعدام الماء على سبيل المثال يكف الأيدي عن الفلح والسّعي، فينقص وجود القوت أو يعدم، وبالتالي تخار جهود الإنسان عن العمل بسبب عدم توفر الغذاء الذي يقيم به صلبه ويكسبه طاقة حركية للعمل، وبالتالي تظهر المجاعة كنتيجة حتمية للوضع، الأمر الذي سيؤدي بدوره إلى تفشي الموت الجماعي بسبب التنافس على القوت القليل والذي لم يكن في متناول الجميع بسبب الغلاء. وعلى حد تعبير ابن خلدون: "وأعلم أنه إذا فُقِدَت الأعمال، أو قلَّت بانتقاض العمران، تأذن الله برفع الكسب" (ابن خلدون، ع. 1979، ص: 671).

أما عن الأعراض الدالة على الإصابة بهذه الأمراض فيشير لسان الدين ابن الخطيب في رسالته عن المرض الهائل إلى أنها متشابهة فيما بينها، فأعراضها أعراض الحمّى الوبائية وهي حمّى عفن عن فساد الهواء، أو الحمّى المحرقة التي تحدث من احتراق الصفراء داخل العروة، ثم إلقاء الدم من الفم أو نفثه، أو ظهور أورام أو دمامل فيما خلف الأذنين أو الإبطين وعند الأرنبة وبصفة عامة في المغابن وهي مواطن طي المفاصل واللحم الرخو (ابن الخطيب، ل. 2015، ص:66؛ ابن حجر، ع. د.ت، ص:98-99).

3. الأوبئة والطواعين بالمغرب الأوسط:

تعرض المغرب الأوسط لحملات وبائية وطواعين متفرقة حصدت أعدادا هائلة من ساكنته منها على سبيل المثال:

- الوباء الذي اشتد على الناس سنة خمس وثلاثين وستمائة (1237م) حتى أكل بعضهم بعضا، وكان يدفن منهم في الحفرة الواحدة مائة من الناس (ابن أبي زرع، ف. 1999، ص:36).
- وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة(1293م) كان الوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر، صحبته مجاعة وغلاء شديدين، وهلك فيه خلق كثير(ابن خلدون، ع. 1979، ص: 539-540؛ الناصري، أ. 1954، ج:3، ص:90).
- وفي سنة خمسين وسبعمائة (1349م) كان الوباء العظيم العام كذلك(ابن قنفذ، ق. 1965، ص:47).
- وفي سنة خمس وستين وسبعمائة (1363م) عاود الطاعون أهل العمران عامئذ بعد أن أهلكهم سنة سبع وأربعين وسبعمائة(1346م) (ابن خلدون، ع. 1978، مج:7، ص: 265).
- وكان الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة(1348م) (ابن خلدون، أ. ي. 1980، ج:1، ص:119؛ابن مريم، ت. 2010، ص:228؛ ابن الشماع، أ. 1984، ص:68؛ ابن خلدون، ع. 1978، مج:7، ص: 265-266).
- وعاود الطاعون الكرة عليهم سنة إحدى وسبعين وثمانمائة (1466م)(ابن مريم، ت. 2010، ص:357؛ الملالي، ت. 2011، ص:55).

4. إفرازات الظاهرة:

خلفت الأوبئة والطواعين التي عصفت ببلاد المغرب الأوسط أضرارا وخيمة جدا في الأنفس والثمرات والعمران وتعطل جوانب الحياة المختلفة بصفة عامة، ومما يقع شاهدا على ذلك الطاعون الجارف الذي عمّ الأرض مشرقا ومغربا سنة تسع وأربعين وسبعمائة(1348م) ولعله أبرز نموذج تناولته العديد من المصادر الإخبارية لهول ما أحدثه في أوساط المجتمعات البشرية عامة؛ ولعل أدل نص على ذلك وصف ابن خلدون لتلك المشاهد الكارثية والقاسية، حيث جاء وصفه متناهيا في الدقة، يقول:" نزل شرقًا وغربًا في منتصف المائة الثامنة الطاعون الجارف، الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها. وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست

السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن، وكأن بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب..، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنِّحل التي تبدلت لأهلها.." (ابن خلدون، ع. 1978، مج:7، ص:265-266).

ومن خلال هذا النص نقف على حجم الخراب الناجم عن هذا الطاعون وما في شاكلته من الأوبئة، وإذا ما فككنا النص أعلاه يتضح لنا ما يلي:

- أن هذا الطاعون جاء عامّا، أي أنه انتشر عبر أجزاء كبيرة جدا من الأرض وشمل الكثير من الأمم مشرقا ومغربا.
- أن الفترة التي جاء فيها هذا المرض صادفت -بتقدير الله- مرحلة هرم الدول، أي لما بلغت الدول الغاية في البناء والعمران والحضارة، فجاءها على حين غرة.
- تسبب المرض في تراجع نفوذ الدول وانكماش حدودها السياسية بسبب الهلاك والخراب البلاد التي تحفظ كيانها في المدى البعيد، فأضعفها سلطانها وقوتها.
- فقدت الدول التي اجتاحها المرض الكثير من خزائن اقتصادها المختلفة الأموال الحبوب، بسبب ازدياد الإنفاق لمواجهة المحنة وحفظ الأرواح والمحافظة على الدولة.
- توقف النشاطات الاقتصادية، وانقباض الناس عن العمل بسبب الخوف من المرض.
- وبالرغم من أن ابن خلدون لم يذكر لنا بدقة حجم الخسائر البشرية إلا أن العدد يظهر أنه كان مهولا جدا، فقد خلت الديار من أهلها، وتداعى العمران، وخارت الدول والقبائل.

ما هذا الحدث والآثار الكارثية المترتبة عنه والتي عصفت بساكنة المغرب الأوسط سنة تسع وأربعين وسبعمائة (1347م) إلا عينة واحدة تغنينا عن الكثير من الأحداث المماثلة والمتفاوتة في الشدة، لكن الأثر بالغ وعميق، لا سيما على النفس البشرية التي شهدت الوضع، حيث يتغير سلوكها في كثير من الأحيان ويخلو من صفة الإنسانية بسبب وطأة المرض والحاجة الماسة للغذاء زمن المسغبة، لذا كان بعض الناس يستغلون الوضع فيرفعون أثمان السلع فيظهر الغلاء، ويعمد آخرون إلى تخزين الحبوب وغيرها ويحتكرونها فتقل مصادر الغذاء وتنقص الأقوات، وبلغ بالناس

أن أكلوا بعضهم بعضا من شدة الغلاء ونقص القوت، كما حدث في وباء سنة خمس وثلاثين وستمائة (1237م) وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة (1293م).

وقد أثرت الأوبئة والطواعين عبر فترات مختلفة على السلوك الغذائي أو النظام الغذائي لساكنة المغرب الأوسط، حيث جدّ الناس في طرق تدبير الأقوات وحفظها لتجنب الفاقة والمرض والمجاعات على مدار السنة، وهنا تبرز قدرة انسان المغرب الأوسط في تحويل الغذاء أو القوت إلى مواد قابلة للحفظ مدة طويلة ومنها تحويل الزبد والشحوم إلى أسمان وآدم، وبناء الأهراء وإقامة المطامير لتخزين الحبوب، وتجفيف اللحوم والأسماء باستخدام الملح، وتجفيف الفواكه كالتين والعنب وغيرها، وصناعة الأشربة، وتخزين الأعشاب الطبية مجففة،... وهلم جرا. كل هذه الطرق من أجل توقي خطر نقص الغذاء وغلائه زمن الجوائح.

5. مواجهة الظاهرة:

وكانت الأوبئة والطواعين من أكثر الأمراض فتكا بأهل المغرب الأوسط، وكانت تأتي على رأس فترات من الانقطاع، على حسب ما يذكر الحسن الوزان: "يظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمسة عشرة سنة، أو عشرين سنة، وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس" (الوزان، ح. 1983، ج:1، ص:85)، ففي شهر ذي القعدة من سنة تسع وأربعين وسبعمائة (فبراير 1347م) مات من أهل تلمسان -عاصمة المغرب الأوسط- في "يوم واحد سبع مائة نسمة ونيّف" (ابن الخطيب، ل. 2015، ص:44)، وما هذه إلا حصيلة ليوم واحد في مدينة واحدة فقط من بين عشرات مدن المغرب الأوسط، مع أن الوباء قد استمر أشهرا يحصد الأرواح.

لقد زرع وفود هذا النوع من الأمراض في نفوس ساكنة المغرب الأوسط خوفا وهلعا كبيرا حيث أن مشاهد الموت كانت منتشرة في أحياء المدن والقرى والمداشر، خاصة وأن المرض كان معديا جدا. لذا شدد العلماء من خلال كتب الطب على ضرورة مراعاة بعض الآداب والشروط من أجل اتقاء المرض إلى أقصى حد حفاظا على النفس والنسل وهي كما يلي:

1.5. الآداب الربانية وأهما:

- سؤال الله تعالى العافية والإستعاذة من السقم.
- الصبر على قضاء الله تعالى والرضى بما يقدره.

- حسن الظن بالله سبحانه وتعالى (ابن حجر، ع. د.ت، ص:345-351).

2.5. التدابير الوقائية القبلية:

عن طريق التّحرز من المرض قبل وقوعه بـ:

1.2.5. تدابير تخص الأشخاص:

- الفصد (إخراج الدم).
- إستفراغ المادة الزائدة أو الفضول الحارة أو الأخلاط التي في الدم.
- استعمال التدبير المبرد المجفف.
- تجنب ملاقاة الهواء الحار والسمائم والتعرض للشمس
- اجتناب مظان الفساد من المريض والميت (حامل المرض) وثوبه وآنيته وآلته وسكنى محله.

2.2.5. تدابير تخص المكان عن طريق:

- رشّ المنازل بالخل والماء الممزوجين.
- تبخير المنازل بالصندل والكافور والبخور الطيبة كالعود.
- تفرش المنازل بالآس والورد والرياحين الباردة.
- الاقامة بالمنازل المرتفعة المستقبل بها جهة الشمال.

3.2.5. تدابير تخص العادات الغذائية عن طريق:

- ترك التملؤ من الغذاء.
- الصبر على الجوع والعطش.
- تجنب أكل الحلو والفواكه الحلوة سريعة الفساد.
- الإعتماد على الخضر مثل الخيار والقثاء ولب الخس.
- أكل الرمان والكمثرى والسفرجل والإجاص والخوخ المز منها والحامض.

3.5. التدابير العلاجية:

بالإضافة للتدابير الوقائية السابقة وبعد وقوع المرض تتبع العلاجات الآتية:

- تناول الطين الارمني بخل ممزوج بالماء.
- معالجة الأعراض الظاهرة للمرض بما يتوافق معها بصناعة اليد (تقنيات الجراحة) أو الدواء.
- إصلاح الأهوية والمجالس.

4.5. تدابير علاجية لرفع الضرر والضغوط النفسية عن المرضى ومنها:

- استعمال الدّعة والراحة في المواضع الباردة وبقرب المياه الجارية.
- تبخير المواضع بالبخورات الطيبة كالعود والصندل والكافور والمسك والسندروس.
- الاكثار من اشتمام الرياحين الباردة الطيبة (المجوسي، ع. 1294هـ، ص:63-64؛ ابن الخطيب، ل. 2015، ص:66-67).

ولا يفوتنا هنا الالتفات إلى صناعة الطب على العهد الزياني، وهي لدى ابن خلدون من الصّنائع الّتي تنظر في جسم الإنسان من حيث يمرض ويصحّ فيحاول صاحبها حفظ الصّحّة وشفاء المرض بالأدوية والأغدية، بعد أن يحدّد المرض الّذي يخص كل عضو من أعضاء الجسم، ويوضّح أسباب تلك الأمراض، وما يصلح لكل مرض من الأدوية معتمدين في ذلك على خلطات الأدوية وأمزجتها وقواها، والأعراض الدّالّة على ظهور المرض وقبوله للدواء (ابن خلدون، ع. 1979، ص. ص: 10-14).

ومن هنا فعمل الطّبيب زمن الوباء والطاعون هو السّهر على حفظ صحة الأصحّاء، عن طريق الحماية والوقاية وتركيب الأغذية والأدوية اللاّزمة لذلك؛ والمعالجة والفحص لتشخيص حالة المريض، وتوفير الوسط الملائم للتّمريض، ثم وصف العقاقير والأدوية والأغدية والأدهان المعينة له، حتّى يحصل له استعادة عافيته وصحّته المعتادة، أو بالأحرى تخفيف وطأة المرض (الخطابي، م. ع. 1988، ج:1، ص:134).

ولما كانت صناعة الطّب تتوقف عليها حياة الفرد والمجتمع، فقد جدّ العلماء والطلبة في تعلمها وتناقل معارفها، حتّى اعتبرها بعضهم من أنبل العلوم بعد معرفة الحلال والحرام (فيلالي، ع. 2007، ص:245). لأنّ هذا النّوع من العلوم الإنسانية يحفظ للمجتمع حيويته وسلامته من الأمراض والعلل (فيلالي، ع. 2007، ص:245).

لذا كان ممتهن الطّب، والملتحق بسلك الأطباء، يخضع لامتحان في الموضوع الّذي تخصّص فيه، ويتمّ اختبار قدراته في الأجزاء الّتي تخصّص فيها، واتّصالها، وكم يكون عدد الأمراض العارضة في ذلك العضو، وما هي الأدوية الّتي يمكن أن يعالج بها في حالة الإصابة بالمرض (محمد مؤنس، م. ع. 1997، ص:55؛ العقباني، أ. ت. 1967، ص: 83). كما كان المحتسب يأخذ عليهم العهد ويحلّفهم أنْ لا يعطوا لأحد دواءً مضرًا، ولا يصنعوا له سمًا، ولا يظهروا للنّساء دواء يسقط الأجنّة، ولا يعطي للرّجال دواء يقطع النّسل، ويغضوا أبصارهم ويتّقوا الدّخول على المحارم، ولا يفشوا أسرار النّاس (ابن الأخوة، 1938، ص:256).

وكانت ممارسة الطّب وتعليمه جزءًا لا ينفصل عن بقية الإختصاصات، فقد كانت المعلومات والمعارف المتعلّقة بالطّب تصل إلى الطالب عن طريق المعلّم أو المدرّس، الّذي كان يتقن العديد من العلوم إلى جانب العلوم الطبية (عمار، ع. 2007، ص:84). وكان العلماء والأطباء يُلْقُون محاضرتهم النّظرية في المساجد والمدارس.

أمّا الجانب التّطبيقي والعلاج، والجراحة وتحضير الأدوية، فقد كان يتمّ على مستوى البيمارستان (زرهوني، ن. 2006، ص:91؛ سامعي، إ. 2007، ص:201-202)، تحت إشراف أطباء من ذوي الدّراية والمزاولة.

والبيمارستانات في تلمسان كانت تتكفل بالضعفاء والفقراء، لا سيما في زمن الكوارث والمجاعات والأمراض العامّة كالوباء والطاعون (ابن نجيم، م. 1980، ص:190؛ ابن خاتمة، أ. رقم:5255، ص:1-2)، ففي سنة 776هـ/1373م ضربت مجاعة شديدة أرض تلمسان وضواحيها في فصل الصّيف، وعصفت ريح قوية فأهلكت الزّرع والحيوان وعمّ الفقر النّاس واشتدت عليهم الأزمة، فاضطر السلطان الزياني أبو حمو الثّاني (760-791هـ/1359-1389م) إلى ضمّ جميع النّاس بالمارستانات، يأتيهم فيها رزقهم بالعشيّ والإبكار، ودام هذا العمل على امتداد فصلي الخريف والشتاء من نفس السنة (ابن خلدون، أ. ي. 2007، ج:2، ص:275-276).

وظل تعليم الطّب قائمًا بالعاصمة الزّيانية في القرن التّاسع الهجري (14م)، فها هو العالم المصري الرّحالة عبد الباسط بن خليل من علماء القرن، يهاجر إلى تلمسان متحملاً مشقّة السّفر من القاهرة، في رحلة طويلة طلبًا لاستكمال بعض المعلومات الطّبّية الّتي كان يلحّ على معرفتها

(مشاهدات وأخبار عبد الباسط بن خليل الظّاهري، 2001، ص:15)، فألتقى بأطبائها وأخذ عنهم الشّيء الكثير. وهو ما يدل على أنّ الطّب كان لا يزال مزدهرًا بالمدينة.

وأهمّ الكتب الّتي كانت تدرّس للطلبة: كتاب القانون لابن سينا، وأرجوزته في الطّب وكتاب المنصوري للرّازي، وكتاب تقويم الأغدية فيما اشتهر من الأعشاب والعقاقير والأغدية ليوحنا بن بختيشوع، وكتاب التّصريف لمن عجز عن التّأليف لأبي القاسم الزّهراوي، وشرح أرجوزة ابن سينا، والموجز في الطّب لابن النّفيس (قريان، ع. 2003-2004، ص:281-282).

هذا بالإضافة إلى مؤلّفات عديدة أنتجها علماء وأطباء تلمسانيون ومغاربة منها: معجم صغير في الطّب مرتب على حروف المعجم لإبراهيم بن أحمد الثّغري التلمساني، وهو عبارة عن قائمة بأسماء الأعشاب الّتي كانت متداولة من قبل، وشائعة بين النّاس في عصره، وله رسالة أخرى بعنوان: "الأدوية ومنافعها" مختلفة عن الحجم السابق (سعد الله، أ. ق. 1998، ج:1، ص:111-112)، وأرجوزة في الأغدية والأشربة لابن قنفد القسنطيني، وكتاب "عمل من طب لمن حب" للسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ)(فيلالي، ع. 2007، ص:259)، وكتاب "حفظ الصّحة" لأحمد بن عبد السّلام المزّاتي الصّقلي التّونسي (ت837هـ)(Fagnane ; E. 1995, p. 492).

ولمّا كانت مهمّة الطّبيب إصلاح الجسد وكشف ما به من العلل، ومداواة الورم، وجبر الكسر، ومعالجة الجراح، بوصف العقاقير والأدوية الملائمة لذلك، إتّخذ أبو حمو موسى الثّاني طبيبًا لحضرته يسمى: أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي (المقري، ت. 1978، ج:1، ص:247/ 1980، ج:5، ص:59)؛ كما أوصى ابنه أبا تاشفين (23 جمادى الأولى 718-736هـ/1318-1336م) بضرورة اختيار طبيب ماهر، عاقل، فاضل، ناصح، يحفظ به صحّته، ويدفع به علّته (أبو حمو موسى، ي، 1990، ص:42).

وبالإضافة إلى الطّب الّذي كان الطلبة يتلقّون مبادئه في المدارس والمساجد، والمارستانات هناك نوع آخر من الطب، كان يمثل إحدى بصمات الثقافة الشّعبية، يمكن أن نسميه الطّب الشّعبي أو التّقليدي، وهو معروف عند أهل البادية، ومشايخ المدينة وعجائزها "يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض" (ابن خلدون، ع. 1979، ص. ص: 918). وربما هذا ما أشار إليه الحسن الوزان

لما يتحدث عن كيفية معالجة مرض الوباء في بلاد البربر يقول: "ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون" (الوزان، ف. 1983، ج:1، ص:85)، كما أن هذا الدواء متواتر وصفه في كتب الطب، وهنا إثبات آخر حول انتشار المعارف الطبية بين الناس، ومن كثرة ما أصاب الناس من حملات وبائية أصبح هذا الدواء هو المفضل في تطبيب الموبوئين والمطعونين.

خاتمة:

تلك إذا فذلكة ما أسفرت عليه محاولتنا في التنقيب عن تاريخ الوباء والطاعون بالمغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطية انطلاقا مما توفر لدينا من مصادر. وللإشارة لا يزال هذا الجانب في حاجة إلى استلهام تراثنا الفكري وإحيائه والاستفادة من تجارب الماضين العلمية في مواجهة أخطار الأمراض الوبائية، لا سيما والعالم اليوم بأسره يشهد قلقا وهلعا كبيرا في ظل انتشار وباء الكورونا (كوفيد 19). ولعل الموضوع -إن شاء الله تعالى-يثير أسئلة جديدة تتجسد في محاولات أخرى تستجلى ما لم يتسنى لنا طرقه.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو حمو موسى، بن يوسف الزّياني. (1990). واسطة السّلوك في سياسة الملوك. (ط:1). تقديم وتعليق: عبد الرّحمن عون ومحمّد الزّاهي، دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، تونس.
2. ابن أبي زرع. الفاسي. (1999). روض القرطاس في تاريخ ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. (ط:2). مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط.
3. ابن الأخوة. (1938). معالم القربة في أحكام الحسبة. تحقيق: روبن ليفي. كمبريدج.
4. التنبكتي. أحمد بابا (ت1036هـ). (2000). كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. ج:1. تحقيق: محمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية: المغرب.
5. الجوهري. اسماعيل بن حماد.(1979). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. (ط:2)، ج:1. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت.
6. ابن حجر. العسقلاني(733-852هـ). (د. ت). بذل الماعون في فضل الطاعون. تحقيق: أحمد عاصم عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض.
7. ابن خاتمة. الأنصاري.(رقم: 5255). تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد. مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط.
8. الخطابي. محمد العربي.(1988). الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية. (ط:1). ج:1. دار العربي الإسلامي، بيروت - لبنان.
9. ابن خطيب. لسان الدين. (2015). مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل. (ط:1)تحقيق: حياة قارة، دار الأمان، الرباط- المغرب.
10. ابن خلدون. أبو زكرياء يحي. (1980). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. ج:1. تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر.
11. ابن خلدون. عبد الرحمن(ت 808 هـ). (1978). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مجلد:7. دار الكتاب اللبناني. بيروت.

12. ابن خلدون. عبد الرحمن(ت 808 ه). (1979). المقدمة. (ط:2). دار الكتاب اللبناني، بيروت.
13. ابن خلدون. يحي. (2007). بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. ج:2. تحقيق وتقديم: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدّراسات والنشر والتوزيع، الجزائر.
14. زرهوني. نور الدين. (2006). الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن 06. مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.
15. الزمخشري. محمود بن عمر(ت538ه). (1998). أساس البلاغة. (ط:1). تحقيق: محمد باسل عيود السّود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
16. سامعي. إسماعيل. (2007). معالم الحضارة العربية الإسلامية. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر.
17. السرمري. يوسف بن محمد(ت776ه). (2004-2005). كتاب فيه ذكر الوباء والطاعون. (ط:2). الدار الأثرية، عمان، الأردن.
18. سعد الله. أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي.(ط:1). ج:1. دار الغرب الاسلامي، بيروت.
19. ابن شماع. أبو عبد الله محمد بن أحمد. (1984).الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب.
20. العقباني. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التّلمساني(ت871 هـ). (1967). تُحفةُ النَّاظِر وغنيةُ الذّاكر في حِفْظِ الشَّعائر وتَغيير المنَاكِرْ. تحقيق: علي الشنُّوفي، نشر:
21. Institut Français de Damas, Bulletin d'Etudes Orientales, Tome : XIX. Années 1965-1966 Damas.
22. عمار. علي. (ديسمبر 2007). تطور الصيدلة وعلم الأدوية في الحضارة الإسلامية. *المواقف*، العدد:1.
23. الفيروزآبادي. محمد بن يعقوب(ت817ه). (2008). القاموس المحيط. تعليق: أبو الوفا نصر الهوريني المصري، دار الحديث، القاهرة.
24. فيلالي عبد العزيز. (2007). تلمسان في العهد الزياني(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية). المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر.
25. فيلالي. عبد العزيز. (أفريل2007). الطب والصيدلة في الأندلس في القرن السادس الهجري/12م. ملتقى الحضارة الإسلامية بالأندلس في القرن 6ه.
26. قربان. عبد الجليل. (2003-2004). السّياسة التّعليمية للدولة الزّيانية. [أطروحة ماجستير غير منشورة]. قسم التاريخ. جامعة منتوري. قسنطينة. الجزائر.
27. ابن قنفد. القسنطيني. (1965). أنس الفقير وعزّ الحقير"، نشر: محمد الفاسي وأدولف فور، مطبعة أكدال، الرباط، المغرب.
28. ابن القيم. الجوزية. (1986). الطب النبوي. (ط:13). تحقيق: شعيب أرناؤوط وعبد القادر أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
29. المجوسي. علي ابن العباس. (1294ه). كامل الصناعة في الطب. المطبعة الكبرى، الديار المصرية.
30. محمد مؤنس. أحمد عوض. (1997). من إسهامات الطّب العربي الإسلامي. (ط:1). دار الفكر العربي، القاهرة.
31. ابن مريم. التلمساني. (2010). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. تحقيق: بوباية عبد القادر، الجزائر.
32. مشاهدات وأخبار عبد الباسط بن خليل الظّاهري في بلاد المغرب والأندلس. من كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتّراجم. (2001) تحقيق: عمر عبد السّلام تدمري، نشر: مجلة التاريخ العربي. العدد: 17. الرباط.
33. المقرّي. التّلمساني أحمد بن محمد (ت1040ه). (ج:1. 1978/ ج:5. 1980). أزهار الرّياض في أخبار عياض. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتّحدة.
34. الملالي. أبو عبد الله محمد بن عمر التلمساني. (2011). المواهب القدوسية في المناقب السنوسية. (ط:خ) تحقيق: علال بوربيق، دار كردادة، الجزائر.
35. ابن منظور. محمد بن مكرم الافريقي(ت711ه).(1968). لسان العرب(د. ط)، ج:1. دار صادر، بيروت.

36. الناصري. أبو العباس أحمد بن خالد. (1954). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج:3. دار الكتاب، الدار البيضاء.

37. ابن نجيم. المصري (ت 970هـ). (1980). رسائل بن نجيم. (ط:1). تحقيق، الشيخ خليل المبس، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

38. الوزان. الفاسي. (1983). وصف إفريقيا. (ط:2). ج:1. تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي.

39. Fagnane (E.). (1995).Catalogue Générale des manuscrits de la bibliothèque national d'Algérie. (2° édition). première tranche.